المحاضرة الثالثة عشر: آفاق البحث في المصطلح 1

ظلّت الآفاق البحثية العربية في مجال المصطلحية حبيسة عمليات النظر والتقليب والمقارنة بين المنظومات المصطلحية فحسب، دون تطلعات لمشاريع كبرى جديدة في هذا المجال التخصّصي الدقيق؛ فالبحث العلمي الرصين بحاجة مسيسة إلى تظافر الجهود بين الباحثين والمؤسسات العلمية ومجامعها قصد بلورة خطط منهجية حديثة تساير التقدّم الغربي؛ وفي الوقت ذاته تكريس هوية النشاط العلمي العربي المعاصر.

ولا يمكن إنكار الدور الفعّال للمتخصّصين في تطوّر البحث المصطلحي، "ولكنّنا قد نلمس بعض المغالاة في موقفهم والكثير من الإجحاف في حقّ علم المصطلح والمصطلحيين، وبالرغم من احترافيتهم واطّلاعهم الواسع على دقائق اختصاصاتهم، ربّما لن يتسنّى لهم القيام بالبحث المصطلحي من دون تمرّنهم على منهجيات العمل المصطلحي" [1].

بهذا، فإنّ معظلة العملية البحثية الدقيقة في مجال التقصّي المصطلحي متعلّقة أساسا بعدم جاهزية المختصّين على المستويين (المعرفي/المنهجي)؛ لأنّ القضية ليست متعلّقة باستقراء معالم الدرس العلمي التخصّصي وكفى؛ بل بعملية النفاذ إلى دقائقه وجزئياته المشكّلة له.

ولعلّ وضع المصطلحات العلمية أو تحقيقها ليست بالمنال الهيّن البسيط؛ ذاك أنّه "أشدّ الأمور وأدعاها إلى الجلد والصبر والأناة والتخصّص الواسع بعلم واحد، حتى بفرع من علم واحد. وربّ كلمة أعجمية تحتاج أحيانا في وضع مقابل عربي لها إلى الدرس والبحث ساعات من الزمن، أو أيّاما تمرّ في التفتيش عن معناها الأصلي في اليونانية أو اللاتينية، وعن واضعها وماذا أراد من وضعها. أمّا الكلمة العربية التي ستوضع أمام الأعجمية، فليس من السهل إيجادها أو اختيارها. فهناك تراث علمي قديم لنا يجب مراجعته بغية العثور على لفظ عربي سائغ، له معنى اللفظ الأعجمي، أو له معنى مقارب لمعناه" [2].

---

[1] شرنان سهيلة، إشكالية ترجمة المصطلحات العلمية في المعاجم المتخصّصة، ص30.

[2] محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، ص54.

عليه، فإنّ التطلّع إلى آفاق البحث المصطلحي المشرق لا يتأتى عبر كشف الالتباسات الغامضة للمصطلح في حد ذاته؛ إذ المسألة متعلّقة بضرورة تنشيط الفكر البحثي العربي عند الباحثين أنفسهم وهي القضية التي راهن على تكريسها الناقد (يحي عبد الرؤوف جبر)؛ حيث نراه قائلا: «إنّ العجز عن حلّ مشكلة الاصطلاح، والاستمرار في الدوران في حلقة مفرغة حول هذا الموضوع لدليل قاطع على أنّ أصل المشكلة ليس هو الاصطلاح، وإنّما هو في الإنسان ذاته، إلا إذا ثبت لدينا قصور الباحثين» [3].

وبخصوص الأفق الغائب في البحوث المصطلحية العربية المعاصرة –عند بعضهم–؛ فإنّه يتمثّل في تغييب الترجمة المبرمجة، إذ إنّ "الترجمة إلى العربية لا تزال تفتقر إلى البرامج على المستويين القطري والقومي كما أنّها لم تبن على دراسة الواقع الراهن بلغة التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، والآفاق المستقبلية في الوطن العربي، ولم تسع لتلبية متطلبات العصر، ودرجة النضج عند القارئ. ونتيجة لذلك فإنّ الترجمة ما تزال تعاني من قصور أنظمة التعليم على تدريب المترجم المتخصص في فرع محدّد من العلوم. ويكتسب هذا الموضوع أهميته من محاولته التغلب على الواقع العشوائي والمزاجي الذي تعاني منه الترجمة في الوطن العربي" [4].

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ تهيئة الظروف الملائمة لتحقيق التعريب على نطاقات عدّة يظلّ أفقا مشروعا ومهما؛ فقد أضحى "أمرا ضروريا في عصرنا الحالي وكذلك التصدّي لفئة المثقفين العرب الذين لا يرحّبون بفكرة التعريب، خاصة وأنّ تمسّكهم بسيطرة اللغة الأجنبية في الوطن العربي قد يدفعهم إلى استغلال نفوذهم في المواقع الإدارية الهامة للتشكيك في هذه التجربة، وهم بذلك يدافعون عن امتيازات ثقافية أدركوها في ظروف معيّنة" [5].

---

[3] يحي عبد الرؤوف جبر، الاصطلاح: مصادره ومشاكله وطرق توليده، ص146.

[4] نجاة عبد العزيز المطوع، آفاق الترجمة والتعريب، ص9.

[5] نجاة عبد العزيز المطوع، آفاق الترجمة والتعريب، ص14.

وفي سياق آخر، نلفي بعض الباحثين مراهنا على أفق مهم في مجال البحث المصطلحي والمتمثّل في ابتعاث المادة المصطلحية من الركام المعجمي العلمي التراثي العربي لتجابه المنظومة المصطلحاتية الدخيلة؛ وهو منال إحيائي مشروع لتقوية الملفوظات العلمية المحلّية؛ وحينها ستكون "المعبّر الأصلي والأوّل عن التوجّه الحضاري للأمة، مقدّم كلّ التقديم، وبجميع وسائل الترجيح، نقلية وعقلية، تاريخية وواقعية، عن خوض غمار أيّ مواجهة، أو الدخول في أيّ صراع من هذا المستوى مع (الآخر)، وإلا فلن يكون الحصاد إلا مزيدا من الاختراق والتبعية والاستيلاب" [6].

ولعلّنا نجد مقولة (أحمد مطلوب) متعاضدة مع هذا الأفق التراثي الاستنهاضي ؛ فنراه محثّا على الاستنارة بالموروث العلمي العربي، وذلك عبر قوله: «إنّ التراث يظلّ ساكنا لا ينتفع به الناس حتى إذا عادوا إليه ونبّهوه صحا وأخذ يقدّم ما فيه النفع وإنارة السبيل، وإحياء التراث العلمي العربي خطوة تفتح آفاقا رحبة وتفضي إلى عالم جديد» [7].

وعلى نقيض ذلك، نجد الناقد (عباس الصوري) منوّها إلى مأزق التعصّب للمفردة المحلّية التراثية والذي ينجم عنه –في منظوره– إقصاء للملفوظ المعرّب –الدخيل– إلى اللغة العربية؛ إذ يقول: «التعصّب للفصاحة أو التراث على اعتبار أنّ ما قاله القدماء كاف للتعبير عن الحياة العصرية يكفي أن نقوم بتحسينه، وإقصاء ما عدا ذلك، فإنّ المنافذ إلى التعريب ستضيق، وبالتالي، الحكم على الوضع المعرفي للغة العربية بالجمود» [8].

وخلاصة القول، أنّ هاته الآفاق المشارة إليها آنفا ستظلّ أهدافا مهمة لاستنهاض اللغة العربية العلمية؛ والتي تحوي رصيدا فنّيا تقنيا زاخرا، وبإمكانها أن تقدّم إضافات مصطلحية للغات الآخر وذلك من باب التثاقف اللساني العلمي؛ فلغة الضاد ليست عاجزة عن مواكبة المستجدات العلمية الراهنة؛ بل هي أحوج إلى ذهنيات تنويرية متّقدة تعيد مجد الفكر العربي الأصيل؛ والذي كان منارة للفكر الغربي في الأزمنة العريقة القديمة.

---

[6] سعيد شبار، المصطلح: خيار لغوي ..وسمة حضارية، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ع78، 2000، ص99.

[7] أحمد مطلوب، بحوث لغوية، ص202.

[8] عباس الصوري، بين التعريب والتوحيد، ضمن كتاب: قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الانسانية، إعداد: عز الدين البوشيخي محمد الوادي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص106.